بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المدح فنّ الثناء والإكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعرى لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحى عديدة من أعمال الملوك ، وسياسة الوزراء ، وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا ، وأضاف إلى التاريخ — صادقاً أو كاذباً — ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه . وزاد فى شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم فى مصاف الأعلام ، وأغفل زملاء لهم كانوا أحقّ بالذكر وأجدر بالشهرة ؛ ولكنها الحظوظ يوزّعها الشعراء ، فينال الثناء بعضاً ويحرم بعضاً ، كما قال يزيد الحارثى :

وإذا الفتى لاقى الحمام رأيته ... لولا الثناء كأنه لم يولد

ولذلك كان المديح فى حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير فى اقتضاب إلى الأحداث ولا تسهب فى تعليلها ؛ شأن الشعر دائماً ، وقد تكون فيها دعاوة وحزبية وشطط وإسراف . ويكون فيها حقّ وصدق وإنصاف ؛ لذلك يجب أن نقف منها موقف النقد والشك والتمحيص ؛ كما نقف من كتب التاريخ سواء بسواء .

وسبب ذلك أن الشعر كثيراً ما تغلب عليه العاطفة والخيال . وتدفع إليه الإقطاعات والهدايا والأموال ؛ أو تسوقه السياسة والعصبية والمذهب والدين ، والخوف والبطش والرغبة والرهبة ؛ يقال فى ظروف خاصة وفى ساعات معينة .